international journal of social communication

كيف نفهم نظرية الحتمية القيمية في الإعلام ؟ مقاربة بنيوية

How do we understand the theory of value determinism in the media? Structural approach

أد.نصير بوعلي
كلية الاتصال جامعة الشارقة / الإمارات العربية المتحدة

تاريخ الاستلام: 2014/01/08 تاريخ القبول: 2014/02/21 تاريخ النشر: 2014/03/11

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة فهم خطوط التلاقي بين نظرية الحتمية القيمية و التيار البنوي الذي يقوم على أساس أسبقية الكل على الأجزاء ،أسبقية العلاقة على الأجزاء، مبدأ السياقية، مبدأ المعقولية، مبدأ التزامن والتعاقب و من خلال هذه المرتكزات نستطيع الاستعانة بالبنوية في فهم ملامح نظرية الحتمية القيمية في الإعلام ولوعلى المستوى الداخلي أي تركيبة النظرية كبنية داخلية بعيدا عن الإطار التاريخي التطوري.

كلمات مفتاحية: الحتمية القيمية ، الإعلام ، المقاربة البنيوية.

Abstract:

The aim of this study is to try to understand the lines of convergence between the theory of the value determinism and the Structural theory which is based on Precedence of all parts, precedence of relationship over parts, contextual principle, principle of reasonableness, principle of synchronization and succession .

Through these pillars we can help to understand the characteristics of the subjective determinism in the media, even at the internal level, i.e. the theoretical composition as an internal structure away from the historical evolutionary framework.

Keywords: determinism, media, structural approach.

1. مقدمة:

ينبغي في البداية القول أن ما سيأتي في هذه الدراسة المتواضعة لا يرتبط بالسياق المعرفي لنظرية الحتمية القيمية في الإعلامفذلك أمر يشترط بعض الوقت في القراءة المتأنية والدالة والهادئة في كتابات البروفسور عزي عبد الرحمن حتى تتضح الرؤية ويصبح موضوع النظرية واضحا وجليا .إذن ماسيأتي ليس عن النظرية وإنما هو عن منهج قراءة وفهم النظرية .إذ أن كتابات عبد الرحمن عزي – كما سبق أن أشرت في دراسة سابقة – تقتضي أن يمتلك القارئ ذاتية فكرية وفنية عالية لكي يستطيع فك الرموز والعبارات الدالة لصاحب النظرية وهي كثيرة . إن ما سيأتي الآن هو عن مفاتيح فهم هذه النظرية ، ويلاحظ القارئ استخدام تعبير مفاتيح بالجمع وليس بالمفرد وذلك لأن مداخل هذه النظرية متعددة . فهل يمكن الدخول إلى الفضاء الواسع للنظرية من المدخل البنيوي أي هل المقاربة البنيوية تساعد على محاولة فهم نظرية الحتمية القيمية في الإعلام ؟.

يمكن في البداية اعتبار نظرية الحتمية القيمية في الإعلام بنية (**Structure**) والبنية في التفسير الفلسفي تحمل معنى المجموع أو

"الكل" المؤلف من ظواهر متماسكة، يتوقف كل منها على ماعداه ويتحدد من خلال علاقته بما عداه[1] وكما هو معروف يقوم المنهج البنيوي على جملة من المبادئ المشتقة من خواص البنية ومن أهم هذه المبادئ:

_أسبقية الكل على الأجزاء ،أسبقية العلاقة على الأجزاء، مبدأ السياقية، مبدأ المعقولية، مبدأ التزامن والتعاقب... إلخ.[2]

وبما أن البنيوية مدرسة متكاملة وبالتالي مغلقة فإن منهجها (إي المنهج البنيوي) هو في حالة انفتاح. إن المنهج البنيوي بالرغم من ارتباطه الأكيد بإطار نظري معين يتمتع بانفتاح طبيعي يسمح له بالاتسام بطابع الاستقلالية النسبية عن النظرية. ومن ذلك نستطيع الاستعانة به في فهم ملامح نظرية الحتمية القيمية في الإعلام ولو على المستوى الداخلي أي تركيبة النظرية كبنية داخلية بعيدا عن الإطار التاريخي التطوري.

إن الحتمية القيمية في الإعلام كبنية تتضمن عناصر البناء التالية :

أ/ علوم الإعلام والاتصال كمادة خام.

ب/ الفكر الاجتماعي المعاصر في القرن العشرين كمادة مستوردة إذا صح هذا التعبير.

ج/التراث العربي الإسلامي على سبيل الاجتهاد وليس النقل كمادة محلية

د/ القرآن الكريم كإسمنت مسلح يطبع ويمسك النظرية بإحكام .

وأستسمح البروفسور عبد الرحمن عزي على هذه التشبيهات التي تجعل ربما من النظرية كتلة جامدة وثابتة وهي ليست كذلك بطبيعة الحال. واستخدمت عن قصد أداة التشبيه مع وجه الشبه حتى يكون التشبيه ناقصا وليس تاما أو هو كل شيء.

وضروري الآن العودة إلى مفاتيح قراءة وفهم الحتمية القيمية في الإعلام انطلاقا من هذه المقاربة البنيوية وفق المحاور التالية:

1–أسبقية النظرية ك:"كتلة " على الأجزاء:

إن البنية تشترط الكلية، وهذه الخاصية تفرز مبدءا منهجيا هو النظرة الكلية للموضوع أي " إلى النظرية ككتلة" ومن هذه الزاوية فنظرة القارئ للنظرية تشترط منطقيا أسبقية الكل على أجزائه. فيستحيل فهم نظرية عبد الرحمن عزي ما لم يكن هناك إلمام بعدد معتبر من دراساته على الأقل، أي ينبغي قضاء وقت في قراءة كتابات عزي عبد الرحمن قراءة متأنية وبذاتية فنية عالية حتى تتضح الرؤية وتبدو النظرية من خلال المنظور أولا (**Perspective**)فالمنظور العام للنظرية هو الذي يحدد المساقط (**prises de vues**) المسقط الأمامي للنظرية والمسقط الخلفي والعلوي والأيمن والأيسر وهكذا . ولقد اعتمد **ليفي ستروس** على هذا المبدأ في تحليلاته منذ كتابه " البنى الأولية للقرابة " (**Structure élémentaires de la parenté**) . ف**ليفي ستروس** كان لايرى في أنساق القرابة إلا كليات تخضع لمبدأ أسبقية الكل على الأجزاء [3]. ومن هذا المنطلق فنظرية الحتمية القيمية الإعلامية هي ذلك الكل المركب من دراسات وأبحاث عزي عبد الرحمن في الإعلام والفكر الفلسفي المعاصر وفي التراث...إلخ. وهذه تشكل مساقط النظرية.

يزيد عدد هذه الدراسات عن خمسين دراسة كلها تقريبا تنطلق من إشكالية واحدة هي: في كيفية فهم الظاهرة الاتصالية والإعلامية فهما قيميا وحضاريا ؟. فعزي عبد الرحمن في حقيقة الأمر كتب دراسة واحدة من منظور واحد، لها زوايا متعددة وأنطلق من إشكالية واحدة يمكن التعبير عنها مجازا هنا بالتساؤل التالي:

هل مشكلتنا الإعلامية هي في غياب القيمة؟ وهل يكمن الحل في عودة القيمة ؟. المشكلة الإعلامية هي المتغير التابع الذي قد يقع عليه الأثر والقيمة هي المتغير الرئيسي المستقل الذي يتأتى منه التأثير سلبا أو إيجابا. المسألة إذن في اعتقادي هي في مدى تقارب و/ أوتباعد القيمة عن الاتصال والإعلام ؟.

ويمكن تصنيف أبحاث عزي عبد الرحمن – لمن يريد الالتحاق بالنظرية – إلى الآتي : دراسات في الفكر الفلسفي المعاصر (**Pensée philosophique Moderne**) ، دراسات في مجال الصحافة (**Journalisme**)، دراسات في مجال وسائل الإعلام الجماهيرية (**Communication de masse**) ، دراسات في مجال العلاقات العامة (**Relation Public**)، دراسات في مجال التكنولوجيا الحديثة للاتصال (**Technologie de Communication**) ، دراسات في مجال التكوين الإعلامي (**Formation Journalistique**) ، دراسات في مجال نظريات الاتصال (**Théories de Communication**) ، دراسات في مجال المناهج الإعلامية (**Méthodologie de Recherche en science de L' information**) ، بالإضافة إلى ترجماته المتعددة.. إلخ. هذا بالإضافة إلى كتبه العديدة والدالة الفردية أو بالاشتراك مع آخرين وما كتب عن إسهاماته ونظريته.[4]

إن كتابات عبد الرحمن عزي عبارة عن عناصر داخل الكل المؤلف من المجالات السابقة (أي الوحدات). وتساهم هذه المجالات في تشكيل نسق النظرية (أي الحتمية القيمية في الإعلام) . فنظرية عزي عبد الرحمن ما هي إلا نسق (**Système**) من تلك الوحدات. وقد أكد على هذا المبدأ **غودوليه** في قوله أن الجزء مشروط بالكل.[5].ويمكن القول من هذا المنطلق أن فهم نظرية الحتمية القيمية في الإعلام يعتمد على مبدأ الكلية أو الاقتراب منها وليس على مبدأ الجزئية. فهذا المبدأ الأخير قد يساعد على الفهم الجزئي لكتابات عزي صاحب النظرية ولكنه لا يساعد على فهم النظرية كنسق متكامل ومنسجم.

2– أسبقية العلاقة على الأجزاء أو القيمة المحددّة لها:

يرتبط مفهوم البنية بمفهوم العلاقة داخل نسق معين، وما يهم البنيوية ليس الأحداث ولا الكلمات في عزلتها ولكن العلاقة التي تقوم بين تلك الأحداث أو الكلمات.ومن هذا المنطلق أيضا لايمكن النظر إلى

نظرية الحتمية القيمية في الإعلام كدراسات منعزلة ومفصولة عن بعضها البعض وإنما ضروري معرفة العلاقة الوثيقة التي تحكم هذه الدراسات فيما بينها. فنظرية عزي عبد الرحمن تتضح أكثر كلما أمعنا النظر في الخيوط التي تربط مساهماته. وعليه فإن معرفة العلاقة بين دراسات عزي عبد الرحمن مبدأ منهجي يقود إلى التغلغل في الدواخل ويؤدي إلى توليد المعاني العميقة للنظرية. وسبق أن أشرت في دراسة سابقة أن دراسات عزي عبد الرحمن عبارة عن سلسلة مترابطة الحلقات وأن هناك خيطا رفيع المستوى يشكل حلقة وصل بين كل هذه الحلقات، وهذا الخيط يتمثل في النزعة الحضارية المفعمة بالفكر والتصورات المتعالية.كذلك يمكن ملاحظة المرجعية القيمية غير المباشرة كعلاقة وثيقة أو الإسمنت الذي يحكم الدراسات كأجزاء مشكلة لوحدة واحدة هي النظرية. ويمكن على سبيل المثال الإشارة هنا إلى تلك العلاقات التي تربط أبحاثه فتجعلها متسلسلة ومحكمة، فالقارئ الجيد يمكن أن يلاحظ مثلا أن " أهمية الأخبار" في المعالجة الصحفية يوليها أهمية وهي حجر الأساس في بناء الصحيفة، وتشكل الأخبار كمفهوم وممارسة علاقة بين أبحاثه التالية : "التدفق الإخباري، الأطر المرجعية الثقافية والتجذر التاريخي " ، "المراقبة الاجتماعية في غرفة الأخبار " ، " الأخبار عبر الثقافات " ، " الصحافة العربية، قراءة تقييمية في ثالوث وليام روف " ، " الصحافة وعلم المعاني" ، الصحافة في المغرب العربي "وهي دراسة باللغة الانجليزية. وترتبط هذه الدراسات فيما بينها من خلال إعطاء الباحث أهمية للخبر الذي يقدم المعرفة وفصل الخبر عن الرأي (أي الحكم على ماحدث) وتأكيد عبد الرحمن عزي على أهمية المعلومات في الممارسة الصحفية ، ولا نتحدث هنا عن الإطار المرجعي القيمي كمنطلق وكعلاقة بين الدراسات والأبحاث السابقة الذكر. أما دراسات عزي عبد الرحمن التي اهتمت بالرسالة كعلاقة فهي على التوالي:

"أزمة الرسالة في النظام الإعلامي الجزائري" ، "ثقافة الطلبة والوعي الحضاري ووسائل الاتصال " ،" وسائل الاتصال والعالم الريفي"، " أزمة المنطلق وتمدن الرسالة" ،" أثر الوسائل السمعية البصرية على نظام القيم وأنماط الاستهلاك في المجتمع الريفي الوسيط " ...إلخ .

ويحل التكوين في مجال الإعلام كعلاقة بين دراستين هامتين هما : " التكوين الإعلامي ، التلاقي والتلاغي بين الوسيلة والرسالة " وهي دراسة تطبيقية على عينة من طلبة قسم علوم الإعلام والاتصال والثانية بعنوان " التكوين الإعلامي والتصورات المرجعية " وهي دراسة حالة برامج التكوين بنفس القسم وتم استنتاج أن برامج التكوين في هذا القسم تعمل ليس على تكوين الطلبة وإنما تعمل على تشويه ذاكرتهم لأن المفردات

بعيدة سياقيا وزمانيا وحضاريا عن خصوصيات الطلبة المتلقين لهذا التكوين، بالإضافة إلى ذلك غياب العلاقة المتفاعلة في عنصر التكوين بين الرسالة كغاية وهدف والوسيلة كأداة. وتأتي النظرية الإعلامية كبعد قيمي وحضاري في أبحاثه الخاصة بالفكر الاجتماعي المعاصر في القرن العشرين، إذ نجد تقديمات لنظرية الحتمية القيمية في دراسته" المدارس الاجتماعية في القرن العشرين وتأملات حول المنظار الخلدوني (من هنا بدأ النبش في التراث العربي الإسلامي) وكذا في" مابعد البنيوية والمعالم الثقافية العربية" وفي " ماهية الظاهرتيةالاجتماعية وفضاء الحياة العربية "وفي" الإعلام الإسلامي تعثر الرسالة في عصر الوسيلة" وفي " التفاعلات الرمزية وحقيقة الحياة الاجتماعيةالرمزيةفي المجتمع العربي" وفي" التحليل النقدي والبنية المؤسسية في المجتمع العربي "...الخ.أما نظرية الحتمية القيمية في الإعلام برزت كفعل يقتضي التأسيس في دراسته "الواقع والخيال في الثنائية الإعلامية" بعد أن كان يتراوح بين الإسهام في البحث عن البديل ضمن أطر متعددة وبين اقتناعه بضرورة إيجاد هذا البديل ضمن اطر الموجهات الذاتية للقيم المنبثقة عن المجتمع العربي الذي درسه اتصاليا وإعلاميا.وقد أشار عبد الرحمن عزي في كتابه دراسات في نظرية الاتصال نحو فكر إعلامي متميز إلى أن هذه الدراسة" الواقع والخيال في الثنائية الإعلامية"[6] وضع فيها الأسس التي تقوم عليها نظريتنا[7]ومع ذلك فهي لم تستوعب كل عناصر النظرية كما لايمكن فهمها ما لم نفهم الأبحاث اللاحقة الخاصة بالمخيال الإعلامي والمكان الإعلامي والزمن الإعلامي والرأسمال الإعلامي الرمزي وبيولوجية الأثر الإعلامي وفعل السمع والبصر وماهية الحق والحقيق و وعنف اللسان والإعلام الخ وتعتبر القيمة هي الحلقة أو الرافد أوالعلاقة بنيويا التي تمسك كل هذه الأبحاث فتجعلها مساقط لاتتحرك إلا ضمن دائرة النظرية ،واستخدام مصطلح الحتمية دليل على العلاقة الوثيقة للقيمة في هذه الدراسات.

3- النظرية من زاوية سياقية:

إن عناصر نظرية الحتمية القيمية الإعلامية لاتحمل أي معنى أو دلالة إلا في إطار السياق العام، وهذا يعني لكي نفهم معني أي دراسة من دراسات النظرية ينبغي وضعها في إطار سياقها العام. الأمر إذن شبيه بالقصيدة الشعرية فلكي نفهم بيتا من الشعر يجب أن نضعه في علاقته مع الأبيات الأخرى وإلا يختل المعنى. ولفهم جيد لنظرية الحتمية القيمية لاينبغي قراءة جزء من النظرية وإغفال باقي الأجزاء . فالنظرية كالسنفونية الموسيقية تصب فيها كل الألحان.

إن النظرة السياقية تستدعي حضور العوامل الاجتماعية والثقافية والحضارية والتاريخية التي ساعدت على تبلور هذه النظرية. وأعتقد أن البيئة التي كان ينتمي إليها عزي عبد الرحمن وطبيعة تكوينه الديني ودراسته في أمريكا واحتكاكه بأتباع النظريات الغربية ونبشه المتواصل في التراث إلخ، هي العوامل التي تشكل سياق نظرية الحتمية القيمية في الإعلام. ومن ذلك نقول أن فهم هذه النظرية لايكون بمعزل عن فهم السياق العام المباشر وغير المباشر الذي تولدت فيه النظرية والذي يتحرك في إطاره الباحث.

فالنظرية لها أبعاد سياقية كثيرة، ولفهمها بشكل جيد ضروري في اعتقادي الإحاطة ولو جزئيا ببنية الفكر الفلسفي والاجتماعي المعاصر وهذا هو السياق الأول للنظرية الإلمام ببنية نظريات الاتصال المعيارية خاصة (ومنها نظرية **مارشال ماك لوهان**)[8] يشكل هذا السياق الثاني، قراءة التراث من مثل المقدمة لإبن خلدون وإسهامات مالك بن نبي في مشكلات الحضارة ومحاولة إبراز الترابط البنيوي بين الإنسان والتراب والزمان، ويشكل هذا سياقا تراثيا للنظرية، ويعتبر الوعي بالمشكلة في العالم الإسلامي والوعي خارج المشكلة سياقا آخر للنظرية أيضا.ويرتبط القارئ بكتابات عبد الرحمن عزي كلما كان على صلة بالسياقات السابقة فهي التي تدفعه إلى معرفة تجليات الظاهرة الإعلامية ومكنوناتها الداخلية والخارجية، كما أن القارئ لايرتبط بمعاني ودلالات ومفاهيم عزي عبد الرحمن بل يعتبرها من الصعوبات إذا كان لايفهم في هذه السياقات أو أنه بعيد عنها ، وهذا يعني بنيويا لكي تفهم معنى الكلمة يجب وضعها في إطار سياقها العام على حد ما ذهب إليه سوسير.

إن السياقات السابقة تؤدي إلى هدف أساسي هو اكتشاف بنية النظرية . فالحتمية القيمية في الإعلام اتضح أنها لاتوجد على السطح أو على ظاهر الأشياء وإنما الكشف على النظرية يكون من خلال البنية الداخلية وعلاقة هذه البنية بالسياقات المختلفة المؤطرة من قريب أومن بعيد للنظرية.

القائمة المراجع :

1- الزواوي، بغورة ، المنهج البنيوي ، بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات ، دار الهدى ، الجزائر، 2001

2- نصير، بوعلي ، الإعلام والقيم ، قراءة في نظرية المفكر الجزائري عبد الرحمن عزي ، دار الهدي ، الجزائر 2005

3- نصير، بوعلي ، الإعلام والبعد الحضاري ، دراسات في الإعلام والقيم ، دار الفجر قسنطينة ، 2007

4- نصير، بوعلي وآخرون ، قراءات في نظرية الحتمية القيمية الإعلامية ، مؤسسة اقرأ ، قسنطينة ، الجزائر، 2009.

5- عزي، عبد الرحمن، دراسات في نظرية الاتصال نحو فكر إعلامي متميز، مركز دراسات الوحدة العربية، السلسلة 28،الطبعة الأولى، بيروت، كانون الأول / ديسمبر 2003

6- Nacir , Bouali , L'information entre Marshal Mac-Luhan Et Azzi Abderrahmane , De la technologie à la Compétence Morale/ Kareem Hashim Mohamed ;From Mac Luhan To Azzi , A theoretical road less traveled ,Mathematical theory, Media Determinism And Value Determinism ,In / Nacir Bouali et Autres : Lectures sur la théorie : le déterminisme de la Valeur Morale de L'information , Imprimerie ikraa ,Constantine 2009.